تاريخ في سير أبطاله

٢ ـ ميرابو

ميرابو ... تلك الأعجوبة !
جوته

للأستاذ محمود الخفيف

وكان الملك قد أخذ بنصيحة نكر حين اشتدت الضائقة المالية فأجاب الشعب إلى دعوة مجلس طبقات الأمة إلى الاجتماع وهو مجلس قديم شهدت فرنسا آخر اجتماع له عام ١٦١٤ ، وقد حدد لاجتماعه اليوم الخامس من شهر مايو سنة ١٧٨٩ ، وكان الغرض من اجتماعه ، مشاورة نواب البلاد فى مخرج من الأزمة المالية

ولكن هل كانت الضائقة المالية كل ما يشكو منه الشعب ؟ كلا ؛ إن فرنسا إذا أردنا الواقع كانت على أبواب عصر جديد ، بل إن تاريخ العالم كان فى مستهل فصل جديد ! فما كانت الثورة مهما اختلفت مظاهرها إلا أوبة الشعب من غمر القرون أو من مجاهل النسيان ، كانت حركة لا محيص عنها ، حركة أدى اليها تطور الزمن على وجه معين بحيث لم تكن الأيام لتلد غيرها

ها هو ذا الأفق الباسم تنشق جوانبه عن جبين الصباح بعد ليل طال واشتدت حلكته ، ولكن ما تلك الخطوط الحمراء التى يراها ميرابو ويوجس فى نفسه خيفة منها ؟ ! إنه يرى فيها نذير الشر والفزع الأكبر . يالله ! من رجل عجيب ! إنه يتشاءم والقوم متفائلون ؛ إنه يرى ما لا يرون ، ولكن لينتظر ما تأتى به الأيام !

الشعب مبتهج يبسم له الأمل ابتسام الربيع من حوله ، أنظر اليه غداة افتتاح المجلس فى طريق نوابه تكاد تنشق حناجره وتدمى أكفه من كثرة ما يهتف ويصفق . يالله ! ما له يطرق فى وجوم كلما مر به أحد السادة من النبلاء أو القساوسة ؟ هل آن لتلك الجموع أن تفرض سلطانها وتجبر القوم على الاعتراف بها ؟ من ذلك الرجل العابس المهيب الذى تتناقل الألسن اسمه وتتدافع الجموع لرؤيته ؟ انه بعينه نائب ١ كس الكنت ميرابو !

اتخذ ميرابو كرسيه وسط العامة ، وقد تهامس الأشراف عند دخوله المجلس وتخاطبوا بالأحداق ، على أنه كان يزدريهم أكثر مما يزدرونه ، ويمقت فى أشخاصهم العهد القديم ونظمه وتقاليده

ودخل الملك القاعة فى حاشيته التى تجلى فيها ترف الملكية واستكبارها ، وألقى على النواب خطابا ارتاحوا إلى ما جاء فيه من أمانى ، وهتفوا لما تضمنه من عبارات العطف ، ثم قام نكر فأكد رؤوس سامعيه بخطاب طويل نصفه أرقام !

تبع الأشراف والقساوسة الملك الى خارج القاعة وبقى العامة فى أماكنهم وبينهم ميرابو يشيع الملك ووزيره بنظرات المقت والسخط . ولقد رأى النواب فى ملامح وجهه أمارات الغضب ، وفسرها الأشراف بأنها مظاهر الحقد الدفين والغل الشخصى

ولكن ميرابو أصبح اليوم غيره بالأمس فلقد ودع حياة السفه والتمرد ، وأصبح السياسى المتزن المهيب الجانب ، الذى يتوقف مصير الحوادث على ما يصدر عنه من قول أو فعل

إنه لا يطمئن الى المستقبل ويرى الأمور تنذر بالكارثة ما لم تعالج بالحكمة . ولقد درس نفسية الشعب خارج المجلس وعرف أن له أطماعا لابد من تحقيقها . لم يكن الناس ليرضوا أن تؤخذ الأصوات فى المجلس باعتبار الطبقة فيفوز الممتازون ، ولا يكون لمساواة العامة إياهم فى العدد أية قيمة . وكان الشعب ونواب الشعب يلحون فى أن يكون التصويت باعتبار الرؤوس . كذلك كان الشعب يطمع أن يكون للمجلس مكان مستديم فى النظام الحكومى ، ويكون لما يصدر من آراء أثر فى سياسة الدولة . وكان ميرابو يسعى جهده فى أن تعلن الحكومة موافقتها على ذلك فى أولى جلساته خشية أن ترغم على ذلك فيما بعد فيؤثر ذلك أسوأ الأثر فى مجرى الحوادث ، ولكن الحكومة أغفلت الأمر ، فكان محقاً فى حنقه وتبرمه

كان يفطن ميرابو أكثر مما يفطن غيره الى انبعاث الشعب واحتضار الملكية . وكان يرى الملكية وقد أثقلتها تقاليد الماضى تكاد تسقط من الأعياء ، حتى لقد قيل عن لويس السادس عشر إنه ورث عن آبائه الثورة والعرش معاً ! ولقد كان هذا الملك المسكين يهرول تارة ليدرك الزمن فتنقطع به الأسباب ، ثم يكاد الأيام ضد طباعها حيناً فتسخر منه الأيام ! وكان ميرابو يرى بنافذ

يصيره أن سلامة الملكية وسلامة الوطن كلتاهما تتوقف على التوفيق بين الملك والشعب ، ولا سبيل لنجاح الثورة غير هذا السبيل

أرسل الى نكر يقول له : « صدقني أيها الوزير أن مصير الملكية في فرنسا متوقف على ماسيكون من أمر هذا المجلس ، وخير لك ولهذا البلد المسكين أن تواجه المجلس بما يحقق أماني الشعب »

ولقد أعد ملتمسا ليتقدم به الى الملك في الجلسة الأولى ؛ ويقال إن الملك بادر الى الخروج عقب انتهاء الاجتماع لما علم من عزم ميرابو . ومما جاء في هذا الملتمس : « أضف إلى مآثرك أيها الأمير المعظم إجابة الشعب الى رغبته يبق الصولجان في يدك ، فاني أخشى إن رفضت أن يشهر في وجهك . »

يالهذا الرجل من بطل ! كيف ينقلب سلوكه هذا الانقلاب المدهش ؟ إن المرء ليلمس أهم ناحية من نواحي عظمته في ذلك التحول ، وما عرف التاريخ قبله رجلا درج من مثل ماضيه فوصل الى مثل ما أتيح له من مجد وعظمة وكمال سياسي

كان منطق الحوادث يقضي بأن يرى ميرابو في الثورة فرصة لشهواته ومرتعاً لمآربه ، فيصبح في غمرتها الرجل الأحمق الذي يهدم ولا يعرف غير الهدم ، ويبطش ولا يستطيع أن ينهض لغير البطش . ولكنه ما عرف الهدم ، وما كان رائده سوى البناء كأحسن ما يكون البناء ! وذلك لعمري من عجائب الأيام ! ولكنه سر العبقرية

أجل ! لقد جد الزمان فأثار جلال الموقف كامن مواهبه ، ولامس موضع العظمة من قلبه ، ورأى في الثورة حادثاً نبه نفسه الى حقيقتها ، أو قل إنه وجدها كفؤا له كما وجد نفسه كفؤا لها

وسنرى أن جهاده منذ اليوم سيكون شاقاً عسيراً ، فان من يعنيهم أمر الوطن من الوزراء ورجال الدولة من أمره في ريبة ، لا يأمنون أن يتخذ من حرج الأمور وسيلة إلى أغراضه الخاصة كما كانوا يزعمون ، بله ما كانوا يضمرونه له من حقد وما كانوا يكنونه من حسد ، حتى المستنيرين من معارفه ومقدري نبوغه لم يكونوا أقل من هؤلاء حذرا منه ، وكانوا فوق ذلك يترفعون في صلف عن مدارسة رجل له مثل ذلك الماضي ! مما كان يملأ قلبه غيظاً . والملك ؟ أيستطيع أن يصل اليه وله من بطانته أسوأ حجاب ؟

وهو لا يثق في نواب العامة ، ويخاف أن يؤدي بهم وجهلهم إلى الكارثة . قال يصفهم ذات يوم : « أكثر من خمسمائة عضو لا يعرف الرجل منهم جاره ! أتوا من جميع أ المملكة ، لا يجمعهم نظام ، ولا يلم شملهم زعيم ، ولن نجد بي ذا نفوذ ، أو تتبين فيهم من يأخذ نفسه بأي ميثاق من موا الطاعة ، وكلهم ميال إلى أن يُصغَى اليه قبل أن يه هو إلى أحد . . . »

أرأيت موقفاً أشد من هذا الموقف حرجاً ؟ ولكن كان حرج الموقف يعمى بصيرته عن سبيل الرشاد ، أو يـ السأم إلى قلبه ؟ كلا فما خلق مثله إلا للشدائد ، وما يظهر أكثر ما يظهر إلا في الملمات . وهل كانت تستطيع السفينة تسير بلا ربان في مثل تلك الأنواء ؟ ومَن ربانها إن لم يـ هو ربانها ؟ لم تمض أيام حتى صار بين نواب العامة المقدم عليه يستقيمون على ما يرسم من طريقة وإن لم يعلنوا زعامته لـ ويتجهون بأنظارهم اليه إن سدت في وجوههم المسالك لم يظهروا له ما هو جدير به من عطف ومحبة ، ولكنه كأخ لم يكن ليصده عن مصلحة وطنه ما ينال شخصه من إهانة ، ذلك من سر عظمة الرجل ما هو جدير بالاعجاب

وكان إلى جانبه الأب سيس ، ينقل إلى نواب العامة ما يو اليه ، وكان هذا الرجل قد آثر صفهم على صفوف الأشراف فعل ميرابو من قبل ؛ وكان لشخصه في قلوبهم مكانة قو الحب ، إن لم يكن قوامها الاعجاب

أخذ الأشراف ورجال الدين يجتمعون كل طائفة في حجرة وعولوا على أن يكون اقرار المسائل باعتبار الطبقة ؛ ولو طاو العامة إلى ذلك لكان للثورة اليوم سيرة غير سيرتها . ولـ أنى للعامة أن يقروا على أنفسهم عملا يطوي بهم القرون الوراء ، وهم يتعجلون الزمن ، ويودون لو يسبقونه إلى تحقـ الأمل الوليد ؟ على أنهم ما كانوا يريدون بملكهم العاثر شرا ذلك اليوم ، ولكن شطط رجال البلاط وسوء تدبيرهم سيجـ من هذا المجلس هيئة تقلب نظام الحكم في فرنسا ، بل وتـ تاريخ البشر إلى طريق جديد

وما كان ميرابو ليرضى أن يطيع أصحاب الامتياز

نهم الشائن وإن كان يخشى أن يؤدى احراج العامة واعنائهم التذمر فالهجوم ، فيتدخل الملك وهو لا يريد أن يتدخل ك إلا بما يرضى الشعب ؛ هو لا يحب أن تبغى إحدى القوتين الأخرى ، ولذلك فهو يسعى ويواصل السعى ، ويدعو ويكرر دعوى الى الأناة ، حتى يصيخ له من صفوف العامة رجل سيد لم يكن سوى سيس ، وسرعان ما يأخذ العامة بنصيحته لسان سيس ، فيقفون من الأشراف موقفاً حكيما هو انتهاج سياسة السلبية ، فيأبون أن ينتخبوا لهم هيئة داخلية تشعر ول انعزال مجلسهم ، كما يرفضون أن يتسلموا الرسائل الموجهة هم باسم رجال الطبقة الثالثة

كان يرجو ميرابو أن يخرج العامة من المأزق دون شحناء ا اعتداء ، ولكن العامة انتظروا حتى ملوا الانتظار ، فاقترح هم قرب نهاية مايو أن يرسلوا الى رجال الدين ، وقد أنس فئة منهم العطف على العامة ، يدعونهم باسم الله وباسم الإنسانية والسلام أن ينضموا اليهم

وفى اليوم العاشر من يونيو اقترح سيس ارسال دعوة نهائية ى رجال الطبقتين يطلبون انضمامهم الى صفوف العامة ؛ وسواء بلوا الدعوة أو لم يقبلوها يجتمع نواب العامة وحدهم للعمل باسم لشعب الفرنسى كله . وأخيراً حين رفض رجال الطبقتين دعوة لعامة أعلنوا فى اليوم السابع عشر من يونية قرارهم الخطير أنهم م « الجمعية الأهلية » فخطوا بذلك أول خطوة نحو الثورة

أشفق ميرابو وقد فهم مغزى هذا القرار على الجمعية وأيقن أن الملك لا بد مجيب على ذلك بضربة حاسمة ، إذ ما الذى يمنعه أن يباغتهم بمرسوم يحل به المجلس كله ؟ ولذلك فقد احتاط للأمر وتوقى الخطر قبل حدوثه . فتقدم إلى الجمعية باقتراح قبلته وأعلنته ، ومؤداه أن نواب الأمة يقررون أن الضرائب القائمة غير شرعية ، ولكنهم لا يمانعون فى جمعها ما دامت الجمعية منعقدة ؛ وكانت هذه خطوة سديدة موفقة من جانب ميرابو

على أنه ظل يحسب للموقف حسابه . فما كان الاشراف ورجال البلاط ليقابلوا عمل الجمعية بالسكون ، وكان ميرابو قد واجه ثورة النواب فى نقاشهم قبل أن يطلقوا على جمعيتهم ذلك الاسم ، وطلب اليهم أن يبحثوا عن اسم آخر لا يتضمن مثل ذلك التحدى ، ولكنهم أعرضوا عنه فلم يجبن عن أن يعلن فيهم « أن نفوذ الملك وحقه فى (الفيتو) لا بد أن يكون أمراً أساسياً فى الدستور ، وبغير ذلك فانه يفضل أن يقيم بالقسطنطينية على أن يعيش فى فرنسا ، لأنه لا يرى أخطر من تسلط سيئة رجل على شؤون الدولة »

ولقد ذاعت الاشاعات يومئذ أن ميرابو أخذ من الملكة مبلغاً طائلا ، وهكذا يأبى شؤم طالعه إلا أن يلازمه فيرمى بالخيانة منذ ذلك التاريخ الباكر

اعتزم الملك نقض قرارات الجمعية ، وعول على الذهاب بنفسه اليها ، وحدد لذلك اليوم الثالث والعشرين من يونيه ، وفى صباح اليوم العشرين من ذلك الشهر حين لم يستطع نواب الشعب الاجتماع فى دار الجمعية بحجة إعدادها لدخول الملك فقد توجهوا إلى ملعب التنس المجاور لها ؛ وهناك وقد أخذ الحماس من قلوبهم كل مأخذ أقسموا أنهم لن ينفضوا حتى يضعوا للأمة دستوراً ، فكان هذا أحد أيام فرنسا المشهورة

ما للسفينة عجلى تسخر بالأنواء وتستخف بما يحيط بها من موج كالجبال ؟ أدر الدفة يا ربانها ليس لها غيرك يوجهها إلى شاطىء السلامة !

دخل الملك فى اليوم الموعود ، وقد تكلف أكثر ما يليق من الجد والحزم ، وأعلن نقض قرارات ١٧ يونيه ، وأمر أن تجلس كل طبقة على انفراد ليكون صدور الأصوات بالمجالس لا بالرؤوس ، وعلى الجميع أن يصدعوا بما يؤمرون وإلا فانه « سيعمل ماتقتضيه مصلحة البلاد معتبراً نفسه نائبها الوحيد »

طرب الأشراف ومن يشايعونهم من رجال الدين لذلك الوعيد ، وقاموا إلى مجلسهم بعد مبارحة الملك القاعة ، وبقى نواب العامة فى مكانهم جامدين . أخفتهم الحيرة فلا يدرون ماذا يفعلون ، واستولى الرعب على أفئدتهم ، فعلى وجوههم صفرة كئيبة ، وفى عيونهم دهشة ومسكنة ، ولكن ميرابو لم يخلق الفزع لمثله ، فوثب من مكانه وفى عينيه الواسعتين نظرات الليث ، وراح يزأر فيهم مذكراً إياهم بقسمهم . فأعاد إلى قلوبهم الحمية ، ثم دار بعينيه فاذا كبير الأمناء يسأل النواب فى صلف : « ألم يسمعوا أمر الملك ؟ » وفى تلك اللحظة الرهيبة التى ولدت للعالم عصراً جديداً يأبى القدر إلا أن يجعل من ميرابو ترجمانه ، فيصرخ فى رسول الملك قائلاً : « نعم أيها السيد ! سمعنا ما أوعز إلى الملك

بالقائه علينا ولست أنت ، ولم يكن لك من مركز أو حق يبيح لك الكلام فى هذا المجلس . نعم لست أنت الذى يذكرنا به . إذهب فقل لمرسليك إننا هنا بارادة الشعب ، فلن نبرح مكاننا إلا على أسنة الحراب »

وتصايح النواب قائلين : « هذه إرادة الشعب » . « الشعب لا يتلقى أوامر من أحد » ، وقام سيس يذكرهم أنهم اليوم ما كانوا بالأمس ؛ ولم يخن ميرابو حضور ذهنه وسط تلك الحماسة ، فأعلنت الجمعية اقتراحه بأن رجالها منذ اليوم فى حصانة ، وأن الصدى عليهم جريمة كبرى !

أرأيت كيف هيأت بسالة ذلك الرجل له موقفاً أصبح فيه بحيث يتوقف مصير الحوادث على ما يفعل أو يقول ؟ وسرعان ما تجاوبت أنحاء فرنسا أنباء ذلك الرد التاريخى ، وجرى اسم ميرابو على كل لسان فى باريس وطبع شخصه فى كل قلب

من ذلك اليوم أصبح ميرابو زعيم الشعب غير مدافع ، وان تم له ذلك فعلا من قبل ، واذا كانت الحوادث تخلق الرجال كما يقولون ، فمن الرجال من يخلق التاريخ . وما تاريخ البشرية اذا أردت اليقين إلا تاريخ عظمائها . ولقد كان ميرابو من هؤلاء النفر الذين يربون جيلا ليلدوا غيره ! وانى لأجرؤ فأزعم أنه عندى أول زعيم شعبى بالمعنى الحديث . إذ كان التاريخ يومئذ ينتقل من فصل إلى فصل كما رأينا

وكان انتقاله هذه المرة على أساس جديد ، على أساس شعور الفرد بوجوده فى شكل ديمقراطى لم ير العالم نظيره منذ ديموقراطية أثينا . أجل ، لقد جاءت الأنباء من وراء المحيط بانتصار الحرية على يد بطل من أهم أبطالها هو واشنطن ؛ ولكن الفرق بين الحركتين كالفرق بين الرجلين ؛ فتلك حركة سياسية فى شعب يخوض غمار الحرب إلى حقه الذى اغتصبه الأجانب من أعدائه ، وهذه حركة اجتماعية كانت أول أمرها سلمية فى شعب يستخلص حقه من سادته وكبرائه ؛ وذلك رجل يشهر السيف ويصل إلى غرضه بالحديد والدم ، وهذا رجل لا يعرف إلا القلم ولا يرى سوى المنبر طريقاً إلى غرضه !

(البقية فى العدد القادم) الطيف

تلخيص كتاب :

الحاكمون بامرهم

LES DICTATEURS

تأليف هنك بانفيل

بمناسبة وفاته فى ١٠ فبراير سنة ١٩٣٦

للأستاذ عبد الحليم الجندى المحامى

تتمة

طاف بنا بانفيل فى النصف الأول من كتابه بطغاة التا ليقدم إلينا طغاة العصر الحاضر ؛ فنحن الآن فى روسيا القيص حيث الشعب يجزى قياصرته الارهاق العظيم بالارهاب الأعظ وإن تعجب فاعجب لهذا القدر الساخر الذى جعل من أ القياصر حبًا للشعب أكبر صرعى الارهاب وهو القي « نقولا الثانى »[1] . . نشطت الشرطة فى أعقاب ذلك المص ولكن نشاطها كان متجها نحو (الانفار) لا نحو القادة ، فنجا طغيانها دعاة جهنميو « كفالديمير أولياتوف » أولئك الذين ج شعارهم « كل شىء ، أو لا شىء »

نفى الفتى — بل الأستاذ — فالدمير سنتين فى سيبريا ، سنة ١٨٩٦ ألف جمعية الكفاح ، وفى سنة ١٩٠٣ افتتح مؤ بروكسل للعمال ، وعقب ذلك أنشأ فى لندرا حزب العمال الرو الديمقراطى

وفى سنة ١٩٠٥ اندلع لهيب الحرب بين اليابان وروس فكانت فرصة نادرة ، فمشى إلى قصر الشتاء مائتا ألف من ال يحدوهم قسيس ليقدموا إلى سدة القصر ملتمسات متواضع فقابلتهم المدفعية بالنار على عتباته ، وكأن أركان الامبراطو الأربعة كانت فى الانتظار ، إذ شجرت القلاقل فى كل ناحية وذ الفرانموق سرج ، وساد الاضراب فى أرمينيا وبولنيا وسيبتو وعبر القدمير — لينين — الحدود لخطب فى موسكو ، وايؤا

(١) راجع مذكرات بالولوج سفير فرنسا السابق فهى من أر ما كتب عن هذا العصر العظيم وهى مصدره